الفصل الثانى

إعلام السلطة

١ - إعلام السلطة فى عصر الاتصال الشفاهى

رغم التلازم فى النشأة التاريخية بين الإعلام والسلطة، إلا أن ندية العلاقة بينها لم تدم طويلاً؛ إذ سرعان ما فرضت السلطة هيمنتها على المجتمع، سواء بفعل الغلبة أو الإرث العائلى أو السطوة الدينية، وخضع الإعلام للسلطة، شأنه فى ذلك شأن بقية القوى والعناصر المكونة للمجتمع.

وقام الإعلام بدوره كأداة للسلطة من خلال أربعة وظائف رئيسية هى: تبرير وجود السلطة، ومنحها المشروعية، والإشادة بمنجزاتها، والتنديد بخصومها، وبهذا الدور أصبحت وظيفة وسائل الإعلام أقرب إلى الدعاية منها إلى الإعلام.

لقد كان هذا الدور الدعائى المؤيد للسلطة هو الغالب على طبيعة العلاقة بين الإعلام والسلطة عبر المراحل التاريخية المتعاقبة التى مرّ بها الجنس البشرى حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، فمنذ النشأة الأولى للمجتمعات البشرية، وفى مرحلة الإعلام الشفهى كانت وسائل الإعلام المعروفة فى ذلك الوقت تنحصر فى الإعلام المباشر بأشكاله المختلفة، سواء بالاتصال الشخصى أو الجمعى أو عن طريق النفخ فى الأبواق أو المنادين الذين يجوبون الشوارع والأسواق، وكانت هذه الوسائل تستخدم غالباً لإعلان حالة الحرب أو السلم، أو الإعلان عن وفاة الحاكم أو سقوطه أو تنصيب حاكم جديد، كذلك فقد كان دورها بارزاً فى إبلاغ الرعية بأوامر الحكومة وتعليماتها، فضلاً عن الدعاية للحاكم والتغنى بمآثره[1].

وهذا الدور الأخير يدفعنا إلى الاعتقاد بأن رواة القصص والأساطير والملاحم من الشعراء والخطباء المنتشرين فى الحضارات القديمة وفى العصور الوسطى كانوا

يقومون بدور إعلامى فى خدمة السلطات الحاكمة[٢]، كذلك فإن هذا التفسير يمكن أن يساعدنا على فهم أسباب حرص قدماء المصريين ومن بعدهم الإغريق والرومان والعرب وغيرهم من الشعوب على تمجيد حكامهم وزعمائهم، فنصبوا لهم التماثيل والهياكل والمعابد، ورووا القصص والأساطير، وألفوا الملاحم والسير فى الإشادة بانتصاراتهم[٣]، وقد حفظت لنا الآثار التاريخية من هذه الملاحم، ملحمتان شعريتان تركهما شاعر الإغريق الكبير هوميروس وهما الإلياذة والأوديسا[٤]، واشتهرت فى الحضارة الرومانية ملحمة (الإنيادة) لفرجيل[٥].

ويمكن أن نجد مقابلاً لذلك فى الحضارات الإنسانية الأخرى؛ فقد عرفت الحضارة العربية مثلاً قبل الإسلام وبعده العديد من السير والملاحم التى سجلت انتصاراتهم[٦]، ولعل أهمها عنترة بن شداد وسيف بن ذى يزن قبل الإسلام والسيرة الهلالية وألف ليلة وليلة بعد الإسلام[٧]، ولعل هذا يفسر لنا أيضاً حماس بعض الملوك والأمراء والوزراء فى العصور القديمة والوسطى وتشجيعهم للأدباء والشعراء[٨]؛ إذ لم يكن هذا الحماس أو التشجيع راجعاً إلى حبهم للشعر أو الأدب بقدر ما كان بسبب ما يقوم به الشعراء والأدباء من وظائف إعلامية فى خدمة السلطة الحاكمة[٩].

وكان ملوك مصر القديمة يتصدرون مواكب الكهنة ورجال الإدارة وقد ارتدوا أزياء خاصة تثير فى نفوس الشعب الإعجاب والرهبة بهؤلاء الملوك بما يدفعهم لطاعتهم والانصياع لأوامرهم[١٠].

وظهرت فى أثينا جماعات السفسطائيين فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد، وكانوا يمجدون فى خطبهم القوة والغلبة، ويدخلون فى نفوس الجماهير أن الحق هو ما يريده القوى[١١]، ووضع أرسطو كتاب (البلاغة) وهو أول كتاب فى دعاية الإغراء وهى الدعاية القائمة على الحديث والخطابة[١٢]، كما يحتوى كتاب الجمهورية لأفلاطون على تعليمات تفصيلية حول ما ينبغى وما لا ينبغى أن يقال للأهالى، صغارهم وكبارهم على السواء فى دولة مدينته الفاضلة، والغرض من هذه

التعليمات هو إبقاؤهم على الولاء لنظام الحكم وحكامه الفلاسفة، وأهمية هذا بالطبع أن الإعلام وسيلة هامة لاستتباب الحكم الداخلى، بل إن أفلاطون كان ينظر إلى الخطابة كفن إقناع ضرورى لرجل الدولة، يلزم أن يتعلمه[١٣].

وللعرب قبل الإسلام وبعده تجربة متميزة فى استخدام الإعلام الشفهى القائم على الاتصال المباشر كأداة لدعم السلطة رغم تعدد وتنوع أشكالها؛ فقد عرف عرب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وسائل إعلامية متعددة، لعل أهمها الشعر والخطابة والندوات والأسواق وكان أشهرها سوق عكاظ، وكانت للشعر المنزلة الأولى عند العرب فى العصر الجاهلى ثم الخطابة بعد ذلك فى الإعلام والدعاية عن القبيلة، ولعل أهم دليل على أهمية القصيدة العربية واهتمام العرب بها كوسيلة إعلام وتأكيد سطوة القبيلة، أن العرب كانوا يختارون أجود القصائد ويكتبونها بماء الذهب، وكانوا يعلقونها على أستار الكعبة أو فى بيوت الملوك والأمراء، ومن أشهر هذه القصائد ما سمى بالمعلقات السبع أو العشر، وكان الشاعر إذا ظهر فى قبيلة من القبائل هنأ أفرادها بعضهم بعضاً وهنأتهم القبائل الأخرى كذلك بهذا الحدث السعيد وهو ظهور هذا الشاعر، والسبب فى ذلك أن الشاعر فى القبيلة كان يقوم مقام الصحيفة بالنسبة للأحزاب فى الوقت الحاضر؛ فهو الناطق بلسان هذه القبيلة وهو المناضل عنها بشعره، وهو الحافز لهممها فى أوقات الحروب، وهو المصور لأخلاقها وعاداتها ومكانتها بين القبائل الأخرى، غير أن أكثر هذا الشعر كان من باب الفخر، والفخر من أنسب الأبواب الشعرية فى الجاهلية وذلك لظهور العصبية القبلية، وقد بقى هذا النوع من الشعر سائداً فى الجزيرة العربية حتى بعد ظهور الإسلام، وأظهر ما كان فى الدولة الأموية ومن أكبر شعرائها جرير والفرزدق والأخطل وذو الرمة ولهم فى باب النقائض أو شعر المهاجاة القبلية شأن وأى شأن[١٤].

وهكذا يتبين لنا أن الإعلام الشفهى القائم على الاتصال المباشر، كان يغطى منذ فترة مبكرة من تاريخ البشرية مجالات كثيرة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، وكان من العسير أن نتصور أى تقدم كان يمكن تحقيقه للبشرية فى مراحلها المبكرة

بدون نشر الأنباء والأفكار وتداولها، مع الاعتراف بأن وسائل الاتصال الشفهية فى ذلك الوقت كانت بطبيعتها محدودة النطاق، وكانت عشوائية سواء بالنسبة لمصدرها أو للجمهور الذى يتلقاها، كما أنها كانت ـ وهو الأهم ـ تدعم الأعراف والتقاليد الراسخة، ومن ثم تقوى النظام القائم المتمثل فى سلطة الحاكم المطلقة.

٢ - إعلام السلطة فى عصر الاتصال الخطى

ترتبط بداية مرحلة الإعلام الخطى بظهور الاتصال غير المباشر بين البشر، أى الاتصال عبر وسيلة إعلامية، تماماً كما ارتبطت مرحلة الإعلام الشفهى بالاتصال المباشر، سواء كان اتصالاً شخصياً أو جمعياً.

وبمعرفة الأبجدية بدأ الإنسان رحلته الجدية للسيطرة على الطبيعة، وأن يسيطر بالتالى على الآخرين، فمن الثابت أن الكتابة باعتبارها اختراعاً قد ارتبطت بالإمبراطوريات العظمى فى التاريخ[١٥]، وأكدت أهمية وسائل الإعلام الخطية للسلطة، وإن لم تضعف من أهمية وسائل الإعلام الشفهية.

وقد تعددت أشكال الإعلام الخطى وتطورت من النقش على الأحجار والرسم على الجدران والمقابر والمعابد والقصور لتصل إلى الكتابة على الجلود ثم الورق، وتقدم لنا الاكتشافات الأثرية الحديثة فى مصر شواهد على أن الكتابة على جدران المقابر وصروح المعابد تدور حول السير الشخصية للملوك والقادة وأخبار معاركهم الحربية وانتصاراتهم الخارجية وإنجازاتهم الداخلية، ولم يكن غريباً أن تكشف بعض تلك الأبحاث الأثرية عن حرص بعض الملوك الفراعنة على تدمير وطمس آثار بعض من سبقهم من الملوك حتى لا يبقى ذكر لغيرهم، وخاصة إذا كان هذا الماضى يشكل تهديداً لشرعية الحكم الجديد.

وقد تمتع القادرون على القراءة والكتابة فى المجتمعات القديمة بحماية الحكام وأكسبتهم قوة ونفوذاً، فالكُتاب فى مصر الفرعونية أصبحوا طبقة متميزة فى ظل النخبة الحاكمة، وتصور رسومات الفراعنة جلوس الكاتب عند أقدام الفرعون يكتب ما يمليه عليه[١٦].

وتحتوى إحدى البرديات على تعليمات موجهة إلى الشعب بشأن العلاقة التى ينبغى أن تنشأ بين الشعب وكبار رجال الدولة الذين يبعث بهم ملوك مصر لتفقد أحوال الناس والتفتيش على الموظفين الذين يديرون المرافق العامة، ويرى البعض أن الفراعنة عرفوا الصحافة منذ سبعة وثلاثين قرناً خلت وكانوا يدونونها على أوراق البردى للدعاية، وهذه الأوراق كانت بمثابة الصحف فى عصرنا[١٧].

وظهرت عند المصريين القدماء "جريدة القصر"، وهى الجريدة التى تحدث عنها المؤرخ المعروف هيرودوت، وقد كانت هذه الجريدة تتناول تصرفات وأعمال ملوك الفراعنة، وكان الغرض منها إبقاء الشعب موالياً للفراعنة حتى يستتب حكمهم فى البلاد، كذلك أقام الفراعنة الأهرامات وشيدوا المعابد الضخمة، للاحتفاظ بجثثهم والقيام بمراسم دينية فحسب، بل ليسطروا على جدرانها أيضاً آيات انتصاراتهم فى الحروب[١٨].

وقد عرفت روما فى مرحلة متقدمة من عصر الإمبراطورية خطابات الأخبار (Newsletter) وهناك من الآثار التاريخية ما يؤكد أن يوليوس قيصر قد أصدر عقب توليه السلطة فى عام ٥٩ قبل الميلاد صحيفة مخطوطة أسماها Actadinrna أى الأحداث اليومية، كان يسجل فيها مداولات مجلس الشيوخ وأخبار الحملات الحربية وانتصارات جيوشه بالإضافة إلى إنجازاته وتعليماته إلى المواطنين[١٩].

وفى أوربا العصور الوسطى ظهرت (الدوريات البابوية) المخطوطة؛ حيث يسجل البابا نصائحه وتعاليمه على سبورة بيضاء يعرضها فى داره ويحضر المواطنون للإحاطة بما فيها، وعندما عجزت الدوريات البابوية أن تلبى حاجة الكنيسة الإعلامية بعد ازدياد نفوذها، وجدت (النشرة العامة) وهى مخطوطة أيضاً ويمكن أن نعتبرها أصل الصحيفة المعاصرة، وكانت النشرات العامة تصدر فى أوقات متقاربة وتنسخ منها العديد من النسخ وتوزع على كافة أنحاء أوربا، لكى تخدم أهداف السلطة البابوية.

وقد انتشرت أمثال هذه النشرات فى أوربا على يد الطبقة البورجوازية الوليدة

خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وقد لبت تلك النشرات الإخبارية المخطوطة حاجات الطبقة البورجوازية الناشئة إلى أخبار أسواق المال والتجارة، ولم يكن غريباً أن تظهر فى باريس جريدة مخطوطة باسم (بورجوازي)[٢٠].

وطوال العصر الوسيط استفادت الحكومات بكافة وسائل الإعلام الشفهى والمخطوط فى تثبيت سلطتها، وكثيراً ما كان يتم التزاوج بين بعض الوسائل الشفهية والخطية[٢١]، وقد اشتهر عن الفاطميين تفوقهم فى ذلك إلى حد كبير، ففى الوقت الذى برعوا فى استخدام منابر المساجد والخطباء والشعراء والمنادين، فقد تفوقوا كذلك فى استخدام الرسائل والمكاتبات والنشرات المخطوطة السرية والعلنية لنشر الدعوة الفاطمية وتأليف القلوب حولها، ليس فقط فى البلدان التى كانت تحت سيطرتهم وإنما فى مناطق كانت خارج هذه السيطرة وقد استحدث الفاطميون منصب (داعى الدعاة) وكان أشبه ما يكون بوزير الإعلام فى عصرنا الحالى، ونظموا مجالس الحكمة وهى أشبه بوزارات الإعلام فى عصرنا الراهن، وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه فى اللباس وغيره.

وقد ترك لنا العصر الفاطمى وثيقة رسمية حملها مرسوم فاطمى بإقامة منصب داعى الدعاة، وقد شملت الوثيقة بيان مقاصد الدعوة الفاطمية وواجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة وشرح عمل مجالس الحكمة فى بث الدعوة، وكان أغلبها ذات صفة سرية وأقلها علني[٢٢]. وهو ما يدل على مدى ما بلغه الفاطميون من تقدم فى استخدام الإعلام كأداة من أدوات السلطة.

لقد تم اختراع الأبجدية فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد فى أعقاب العصر الشفوى الذى امتد لأكثر من ثمانية آلاف عام، حيث اعتمد الإنسان على الذاكرة لرواية الأحداث، التى ضاع أغلبها طى النسيان، فلم يصلنا من تراث ذلك العصر إلا القليل النادر، أما فى عصر الكتابة فقد أصبح للإنسان القدرة على الترميز، أى وضع الأفكار فى رموز أبجدية، يحتفظ بها على وسيط ما، وقد أخذ هذا الوسيط يتطور بتطور المعرفة، ولهذا بدأت الكتابة أولاً على ألواح الطين أو الحجر، ثم الجلد وورق البردى والعظام والخشب وأخيراً الورق، وحين دَوَّن الإنسان أفكاره بالقلم

على وسيط مادى، استراح من عناء الاعتماد على ذاكرة يصعب الركون إليها بصورة مطلقة، لذلك كان من الطبيعى أن يطلق على اختراع الأبجدية ثورة الاتصال الأولى فى تاريخ الإنسانية، وهو ما يميزها عن الثورتين اللاحقتين، ثورة الاتصال الطباعى وثورة الاتصال الإلكترونى[٢٣].

ويلاحظ أن إعلام السلطة ظل يشكل النمط السائد الذى يحكم العلاقة بين الإعلام والسلطة خلال مرحلتى الإعلام الشفوى والخطى معاً، وأن ظهور الاتصال غير المباشر فى مرحلة الإعلام الخطى لم يضعف من هيمنة السلطة على الإعلام، بل على العكس، فقد أتيح للسلطة فرصة أكبر للتحكم فى هذه الوسائط الخطية الجديدة ـ فى ذلك العصر ـ عن طريق المنع والمصادرة والرقابة، فى حين كان من الصعب بمكان ممارسة هذه الأساليب على الاتصال المباشر بين الأفراد.

٣ - إعلام السلطة فى عصر الاتصال الطباعى

كان اختراع المطبعة فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى على يد يوحنا جوتنبرج فى ألمانيا إيذاناً ببدء الثورة الاتصالية الثانية، ثورة الاتصال الجماهيرى، ودخول المرحلة الثالثة فى تاريخ الإعلام وهى مرحلة الإعلام المطبوع بعد مرحلتى الإعلام الشفوى والإعلام الخطى.

ولقد ظهر الكتاب المطبوع أولاً ثم تلته الصحف، وقد ظلت الصحف ولمدة قرنين من الزمان، أى من نهاية القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر، تلعب دور الأداة فى خدمة السلطات الاستبدادية التى كانت تحكم الممالك الأوربية فى ذلك الوقت، وقد حرصت السلطة الحاكمة فى هذه البلدان على أن تكون الصحف ملتزمة بتأييد كل ما يصدر عن السلطة أو ما يتعلق بها، وقد كان السماح لأى فرد بالعمل فى الصحافة لا يتم إلا بموافقة السلطة، واعتبر منحة من الحاكم وامتيازاً يختص به من يشاء من رعيته، وهذا الامتياز الممنوح للفرد يترتب عليه التزام بتأييد النظام الحاكم وسياساته، فإذا ما أخل الفرد بهذا الامتياز، لا يعود له حق العمل بالصحافة.

ولم يكن من الضرورى أن تقتصر ملكية الصحف على السلطة الحاكمة، فقد سمح للأفراد بملكية الصحف التى يصدرونها، ولكن ظل قيام هذه الصحف واستمرارها رهن بإرادة السلطة، وفى مقابل سماح السلطة للأفراد بحق تملك الصحف، فقد أوجدت السلطة لنفسها حقوقاً أخرى توازن بها حق الأفراد فى ملكية الصحف، مثل إلزام الفرد بضرورة الحصول على ترخيص من السلطة

بإصدار الصحيفة، ومثل حق السلطة فى فرض الرقابة على ما تنشره الصحف، وحقها فى وضع القوانين التى تعاقب الصحف على خروجها على إرادة السلطة، وحقها فى فرض الضرائب على الصحف للحد من نفوذها.

كذلك حرصت السلطة على أن تكون درجة الحرية المسموح بها للصحف، مناسبة للحالة السياسية التى توجد بالمجتمع الذى تصدر به هذه الصحف، أما تقدير هذه الدرجة من الحريات الصحفية، فقد كانت متروكاً للسلطة الحاكمة نفسها.

ولعل هذا يفسر لنا لماذا نشأت الصحافة فى أغلب مناطق العالم "خبرية"، أى اقتصرت وظيفتها على نشر الأخبار فقط دون أن تجرؤ على التعليق عليها. وفى غرب أوربا، حيث كانت أول من عرف الصحافة فى نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، ووجهت محاولات الصحف لنشر الآراء والأفكار ـ التى لم تكن دوماً تتمشى مع رغبات السلطة ـ بمقاومة صارمة من جانب السلطة، وقد صدرت فى أكثر من بلد أوربى قوانين تمنع الصحف من التعليق على الأحداث الداخلية، لذلك تكاد الصحف فى تلك الفترة أن تكون أشبه بالنشرات الرسمية ولم تكن تحتوى بجانب الأخبار إلا على التافه من الأمور، لذلك فقد كان ينظر إلى الصحف من جانب النخبة المثقفة فى فرنسا مثلاً حتى منتصف القرن الثامن عشر، نظرة عدم التقدير والاحترام، وهذا ما عبر عنه الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو بقوله: "ما الصحيفة، ليست سوى نشرة عابرة لا فضل لها ولا إفادة فيها، لا تفيد فى قراءتها المهملة المحتقرة من قبل الرجال المثقفين، إلا فى إعطاء النساء والأغنياء غروراً فوق غرورهم".

كذلك فقد وصف المفكر الفرنسى "ديدرو" فى موسوعته الصحف بقوله: "هذه الأوراق جميعها غذاء للجهالة ومورد الذين يريدون التحدث والحكم بدون قراءة".

لذلك لم يكن غريباً أن أغلب المفكرين والفلاسفة الفرنسيين الذين وجدوا قبل

الثورة الفرنسية (١٧٨٧م) مثل فولتير وروسو ومنتسكيو وديدرو لم يكتبوا قط فى الصحف التى كانت تصدر فى عصرهم.

وقد حدث العكس تقريباً بعد قيام الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر، فقد قلبت الثورة المقاييس الصحفية فى فرنسا وأوربا الغربية كلها وحولتها من صحافة خبر إلى صحافة رأى، وقد ساعد على ذلك أن الثورة أعلنت ثم طبقت ـ وإن كان لفترة وجيزة ـ مبادى حرية الصحافة التى صارت طوال القرن التاسع عشر، بل حتى أيامنا هذه، هدفاً يسعى إليه الصحفيين فى العالم أجمع.

لذلك لم يكن غريباً أن تتغير بعد الثورة نظرة المثقفين إلى الصحف، بل لقد اندفع عدد كبير من المثقفين الفرنسيين أنفسهم إلى إصدار الصحف للتعبير عن أفكارهم، فقد أصدر "ميرابو" صحيفة "لوكورييه دى بروفانس" وأصدر "مارا" صحيفة "لامى دوبويل"، وأصدر "هيبر" صحيفة "لوبيرو دوشين"، وأصدر "بابيف" صحيفة "لوتربين دبويل" والأخيرة توقفت فى عام ١٧٩٧م بعد أن أعدم صاحبها لنزعته الاشتراكية.

ولعل أكبر دليل على تعاظم وظيفة الصحافة كأداة لخدمة السلطة، قول "نابليون بونابرت" وهو يتحدث عن صحيفة "لومونيتور" التى كانت لسان حاله: "لقد جعلت لومونيتور قلب حكومتى وقوتها، وكذلك وسيطى لدى الرأى العام فى الداخل والخارج معاً، وكانت الصحيفة كلمة الأم لأنصار الحكومة"[٢٤].

ولقد تكررت نفس الظاهرة فى الوطن العربى، فقد نشأت الصحافة العربية أيضاً صحافة خبر، ونادراً ما كان يسمح لها بالرأى أو التعليق على الأخبار، فأول صحيفة صدرت فى الوطن العربى هى صحيفة "الوقائع المصرية" التى أصدرها محمد على حاكم مصر عام ١٨٢٨م، كانت منذ بدايتها ولفترة طويلة بعد ذلك صحيفة خبرية تكتفى بنشر أخبار الدولة وأوامرها وتعليماتها لكبار الموظفين والجمهور، وذلك لخدمة طموح محمد على فى بناء دولة حديثة، لذلك لم يكن غريباً أن تكون الوقائع المصرية صحيفة رسمية، أى صدرت بأوامر السلطة وبأموالها ولخدمة أغراضها.

كذلك كان الأمر مع بقية الصحف الأولى التى صدرت فى بقية أجزاء الوطن العربى، فقد بدأت جميعها صحفاً خبرية ورسمية، أنشأتها السلطة، مثل صحيفة "المبشر" الجزائرية (١٨٤٧م)، وصحيفة "الأخبار" اللبنانية (١٨٥٨م)، و"الرائد" التونسية (١٨٦٠م)، وصحيفة سورية (١٨٦٦م)، وصحيفة "طرابلس الغرب" الليبية (١٨٦٦م)، و"الزوراء" العراقية (١٨٦٩م)، وصحيفة "صنعاء" اليمنية (١٨٧٩م)، وصحيفة "مراكش" المغربية (١٨٨٩م)، و"الغازيتة" السودانية (١٨٩٩م)، وصحيفة "الحجاز" (١٩٠٨م).

وفى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر تطورت الصحافة فى غرب أوربا وفى الولايات المتحدة الأمريكية وفى مناطق أخرى من العالم وتبدلت من صحافة خبر إلى صحافة رأى، ثم انتهت إلى الجمع بينهما[٢٥]، وقد ساعدها على ذلك أنها انتقلت من كونها صحافة "النخبة" إلى صحافة "الجمهور العريض"[٢٦]، وقد ترافق ذلك مع الهيمنة المتزايدة للبنى والاتجاهات التجارية من ناحية مع تقلص هيمنة السلطة وتحكمها فى الصحافة من ناحية ثانية[٢٧]، وهو الأمر الذى فتح الطريق لبناء نمط جديد من العلاقة بين الإعلام والسلطة، وهو النمط الذى يلعب فيه الإعلام دون الرقيب على السلطة.

ولكن هذا الدور الجديد لم يكن عاماً أو شاملاً، وإنما يكاد يقتصر فى معظم سنوات القرن العشرين على الصحافة الغربية وحدها، وإذا شئنا الدقة أضفنا إليها عدداً محدوداً من التجارب الصحفية قد لا يزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة، خارج منظومة الصحافة الغربية.

ولقد قدمت النظم الاشتراكية نموذجاً آخر لتوظيف الصحافة كأداة للسلطة، فقد كان "لينين" ينظر إلى الصحافة وبقية وسائل الإعلام باعتبارها أداة الطبقة العاملة وحزبها الشيوعى لتوعية وتحريض وتعبئة جماهير الثورة[٢٨]، كذلك أكد "ستالين" بعده أن الصحافة هى الأداة القادرة على التأثير فى الجماهير، ومن خلالها يخاطب الحزب الجماهير ويقيم الروابط الروحية بين الحزب والطبقة العاملة، وفيما بعد أكد نيكيتا خروشوف أن الصحافة وكافة وسائل الإعلام هى سلاح

أيديولوجى رئيسى وواجبها أن تواجه أعداء الطبقة العاملة تماماً كما هو الحال فى الحرب، ولا أحد يستطيع أن يحارب بدون سلاح، لذلك فالحزب لا يستطيع أن يصنع أى عمل أيديولوجى بنجاح بدون مثل هذا السلاح الحاد، ونحن لا نستطيع أن نضعها فى أيد غير أمينة، وإنما يجب أن تكون فى أيد موثوق فيها للغاية ومخلصة تماماً، ووصف "ليونيد برجنيف" الصحافة ووسائل الإعلام فى تقريره إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى بأنها "البوصلة التى يمكن الاعتماد عليها فى المعلومات اليومية"، وأضاف فى خطاب وجهه إلى اتحاد الصحفيين السوفيت بأن وسائل الإعلام أداة لكشف الحرب الدعائية ضد التجربة الاشتراكية، وهى أيضاً وسيلة لإبراز الإنجازات التى حققتها تلك التجربة للبشرية[٢٩].

وفى التطبيق العملى، فقد حدث بعد استيلاء البلاشقة على السلطة فى روسيا فى عام ١٩١٧م أن أصدر "لينين" أوامره بإغلاق كافة الصحف القائمة، وفى ١٠ نوفمبر ١٩١٨ صدر مرسوم ينص على احتكار الدولة لجميع وسائل الإعلام والمطبوعات، وينص على عقوبة مدتها ثلاث سنوات لكل من يبدى اعتراضه على هذا القرار أو يعوق تنفيذه، وبذلك وظفت وسائل الإعلام لخدمة السلطة الحاكمة، ولعل أفضل صياغة لمفهوم الإعلام كأداة للسلطة فى النظم الاشتراكية، تقدمه لنا نظرية فرانز فابر عن "الإعلام الاشتراكي" حيث ينطلق فى كتابه "الصحافة الاشتراكية"[٣٠]، من فرضية ترى أن الصحفيين والإعلاميين بشكل عام يمارسون عملهم دائماً بوصفهم جزءاً من طبقة معينة أو بوصفهم حلفاء لهذه الطبقة وبتكليف منها، فوسائل الإعلام لن تكن على الرغم من كافة الإدعاءات الليبرالية غير ملتزمة أو ظاهرة إنسانية عامة، ولن تكون كذلك بل أنها تخدم دائماً أهداف طبقة معينة، كما تخدم استراتيجيتها وتكتيكها، إذ أن المضمون الذى تخرج به من وسائل الإعلام يرتبط فى الدرجة الأولى بالموقع الاجتماعى للمؤسسات التى تصنع هذا الإعلام، وبمصالح هذه المؤسسات، وهنا نجد السبب الذى يكمن وراء اختلاف الإعلام الليبرالى عن الإعلام الاشتراكى، فالإعلام الليبرالى يقوم بمهمة تنفيذ الاستراتيجية الرأسمالية ونبنى موقفها الفكرى وتنفيذه، وهى تستهدف بذلك تكوين صورة عن

العالم فى عقول المواطنين تؤدى إلى تعبئتهم بما يخدم القوى التى تشكل السلطة الحاكمة. أما غاية الإعلام الاشتراكى فهى عند فرانز فاير تقوم على بناء الوعى التقدمى من خلال شرح مضمون التطور الاجتماعى وأهدافه واستراتيجيته، وذلك انطلاقاً من المتطلبات الاجتماعية ومن مصالح الفرد، وهى فى الوقت ذاته تحارب محاولات التخريب الأيديولوجية التى تقوم بها وسائل الإعلام الرأسمالية، فهى تكشف كذلك كذب المعلومات التى تمتلئ بها تلك الوسائل وزيف الصورة التى ترسمها للعالم، كما تكشف نواياها المعادية للإنسانية. إن الوظيفة التنظيمية لوسائل الإعلام تنبع من خلال وحدة بين جانبين الأول نقل المعارف والمعلومات حول قضية الحياة الاجتماعية، والجانب الثانى صياغة الأيديولوجية التقدمية، وبهذه الوحدة بين الجانبين تقوم وسائل الإعلام الاشتراكية بتوجيه الناس وإرشادهم حول مهام الدولة بحيث يصبح عدد كبير من المواطنين قادراً على تركيز نشاطه على المشكلات الاجتماعية والمساهمة فى حلها.

ويلاحظ أنه فى الوقت الذى يحاول فيه فرانز فاير التركيز على الاختلاف العميق بين المفهومين الاشتراكى والليبرالى للإعلام، إلا أنه قدم لنا دليلاً دامغاً على التشابه بينهما، حيث يؤكد على دور الإعلام كأداة فى كل من النظاميين الليبرالى والاشتراكى ففى النظام الأول يخدم الإعلام سلطة الطبقة البورجوازية، وفى النظام الثانى يخدم الإعلام سلطة الطبقة العاملة!.

كذلك يلاحظ أنه إذا كانت السلطة فى النظم الديكتاتورية تتمثل فى حكم الفرد، فإنها فى النظام السوفيتى تمثلت فى حكم الحزب الواحد الذى ينفرد بالسلطة، ولكن مع مرور الوقت أصبحت وسائل الإعلام فى خدمة فرد أو مجموعة صغيرة من الأفراد تربعوا على قمة السلطة فى الحزب والدولة، ولم تعد فى خدمة حتى الحزب الواحد الحاكم.

٤ - إعلام السلطة فى العصر الإلكترونى

فى الوقت الذى كانت فيه صحافة التوزيع الجماهيرى الواسع تمضى قدماً إلى الرواج والازدهار مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بدأت فى الظهور وسائل اتصال نشأت نتيجة التطبيقات العملية للكهرباء مثل البرق والهاتف والراديو والسينما، وقد دخلت هذه التكنولوجيات الحديثة مباشرة عصر تصنيع وسائل الاتصال الجماهيرى والاستهلاك الجماهيرى بأسرع مما فعلت الصحافة، إذ استفادت فى ذلك من وجود بنيتها الأساسية الراسخة وخبرتها، وقد واكب نمو هذه التكنولوجيا تغييرات سياسية واقتصادية وثقافية واسعة سواء داخل كثير من البلدان أو على النطاق العالمى.

إن ثورة الاتصال الثالثة هى الثورة الإلكترونية، وقد بدأت باستخدام الراديو كوسيط لنقل الرموز عبر الأثير، وكان التليفزيون أحد الإنجازات الهامة لهذه الثورة الإلكترونية، ثم جاءت القنوات الفضائية نتيجة الامتزاج بين تكنولوجيا الحاسب الآلى وتكنولوجيا أقمار الاتصال الصناعية، وبعدها ظهر الإنترنت واستقر كوسيلة اتصال حديثة مستقلة عن عداها من وسائل الاتصال الجماهيرية أن التكنولوجيا الاتصالية المتطورة قد غيرت من الإطار الذى يمكن فيه وضع المبادئ الأساسية موضع التطبيق، وخلقت أخطاراً جديدة على الحرية، فقد كانت السمة المميزة لكل اختراع حديث، أنه كان يتطلب استثماراً على مستوى لا يقدر عليه سوى أصحاب رؤوس الأموال العامة أو الخاصة، وفى معظم البلاد كانت ميزة إمكانية الحصول على آلات الطباعة المتزايدة التكاليف، وأجهزة الإذاعة والتليفزيون بوجه خاص تعنى أنه ليس بوسع محدودى الثروة إلا أن يدخلوا منافسة غير متكافئة على أحسن

تقدير، ففى الولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوربا وفى كندا واليابان واستراليا فإنه من الناحية النظرية لكل فرد فى هذه البلدان الحق فى حرية التعبير، بيد أنه لم يكن فى مقدور أى فرد أن يمارسها على قدم المساواة، وفى نفس الوقت أخذت الدولة فى غالبية الدول الأخرى، وبالذات فى العالم الثانى والثالث، بما لديها من أموال عامة، بعين الاعتبار تلك الفرص الجديدة التى أتاحتها وسائل الإعلام الإلكترونية كى تؤثر فى تفكير مواطنيها وتؤكد سيطرتها على مقدراتهم، وقد استعاضت هذه الحكومات عن الاستراتيجية القديمة لتقييد حرية التعبير بسياسة أكثر فاعلية تسخر التقنيات الحديثة من أجل تحقيق غاياتها[٣١].

لذلك لم يكن غريباً أن نجد غالبية الحكومات فى العالم الثانى والثالث تحرص على بسط سيطرتها الكاملة على الإعلام الإذاعى والتليفزيونى عن طريق فرض ملكية الدولة لهذا الإعلام، ورغم أن بعض هذه الحكومات تسمح بالتعددية الحزبية، وبالملكية الفردية فى الاقتصاد، وترفع شعار الخصخصة، إلا أنها مازالت تصر على ملكية الدولة لوسائل الإعلام الجماهيرية خاصة الإذاعة والتليفزيون.

إن الآثار السلبية لتكنولوجيا الاتصال الحديثة على حرية التعبير لا تقتصر على الصعيد الوطنى وحده، فعلى الصعيد الدولى أدت إلى خلق اختلالات شديدة فى مجال الاتصال والإعلام بين البلاد الفنية والبلاد الفقيرة.

وبالتأكيد فإن أكبر إنجاز حققته ثورة الاتصال الثالثة أن المسافات لم تعد عقبة أمام تبادل الأنباء والمعلومات والآراء على المستوى الدولى، وكذلك قيام نظام اتصالى عالمى يربط بين أى بقعة وأخرى على كوكب الأرض. وفى الحقيقة فإن هذا الإنجاز قوبل بترحيب من كافة الأمم، وكان الأمل يحدوها فى أن تعم فوائده على الكافة، ورغم أن البعض ـ ونحن منهم ـ قد أبدى تخوفاً مما كان يحدث من تحول لبعض وسائل الإعلام الغربية إلى الطابع المؤسسى الدولى الضخم، وأن هذا التحول قد يهدد حرية التبادل الدولى للأنباء والآراء والأفكار، إلا أن العديد من الأصوات قد ارتفعت فى الدول الغربية بالذات لتؤكد أن التدفق الهائل فى المعلومات سوف يوازن بين السيطرة الاحتكارية للمؤسسات الإعلامية الكبرى

وبين حرية تبادل الأنباء والمعلومات، وأن قدرة الأنباء والمعلومات على الانتشار سوف يقلل من هيمنة الاحتكارات المالكة لوسائل الإعلام الدولية.

إن الآثار التى نجمت عن تطور تكنولوجيا الاتصال الدولى قد خيبت الآمال التى عقدت عليها وأسكتت الأصوات المتفائلة؛ إذ أدى التطور التكنولوجى إلى زيادة الفجوة بين الدول الصناعية الكبرى المتقدمة من ناحية والدول النامية من ناحية ثانية؛ حيث وجدت دول تتمتع بوفرة فى الإنتاج الإعلامى ودول أخرى تعانى من مجاعة فى هذا الإنتاج، وهو ما أدى إلى إيجاد ثنائية جديدة فى النظام الإعلامى الدولى تقوم على هيمنة عدد قليل من الدول المتقدمة على الغالبية العظمى من الدول النامية، أى هيمنة من جانب وتبعية من جانب آخر.

ومن المهم التأكيد على أن التطور فى تكنولوجيا الاتصال والإعلام يعتبر أحد الأسباب الرئيسية فى تحول النظام الإعلامى الدولى من الطابع الثنائى إلى طابع النظام الواحد، وإن هذا التغيير فى النظام الإعلامى الدولى لابد أن يؤثر بعمق على الدول النامية، ومن المتوقع أن يتخذ هذا التأثير مسارين متناقضين، سوف يؤدى المسار الأول إلى إعطاء قدر متزايد من الحريات لوسائل الإعلام فى الدول النامية حتى تستطيع أن توائم أوضاعها الإعلامية مع طبيعة النظام الإعلامى الدولى المهيمن وهو النظام الغربى الذى يقوم على الليبرالية بما تمثله من حرية وتعددية فى وسائل الإعلام، أما المسار الثانى فهو يقود إلى المزيد من التبعية الإعلامية واتساع هيمنة القطب الواحد على بقية شعوب العالم، حيث يسمح بقدر محدود من الحرية لوسائل الإعلام فى العالم الثانى والثالث، وهو قدر يكفى بالكاد لإعطاء وسائل الإعلام الغربية فرصة أكبر للتسلل والسيطرة على وسائل الإعلام فى الدول النامية، مثل استغلال التعددية الإعلامية فى الحصول على حق وسائل الإعلام الغربية فى التملك أو المشاركة فى تملك وسائل الإعلام فى الدول النامية، وكذلك إعطاء وسائل الإعلام الغربية فرصة إلغاء القيود التى تعوق حريتها للحصول على مزيد من المعلومات التى لم تكن متاحة من قبل عن العالم الثالث، وكذلك إمكانية تحطيم العقبات القانونية والإدارية مثل الرقابة على المطبوعات والدوريات والبرامج

التليفزيونية والأفلام السينمائية الأجنبية بما يتيح مزيداً من التدفق للأفكار الغربية بين شعوب العالم الثالث.

وقبل أن نصدق ما تروجه وسائل الإعلام الغربية عن حقوق الإنسان وحرية الإعلام والتعبير لشعوب العالم الثالث، علينا أن نتذكر أن الغالبية العظمى من الدول الاستعمارية فى القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين كانت دولاً أوربية ليبرالية، ولكنها مارست فى مستعمراتها أسوأ ألوان الحكم الاستبدادى، كما أن الاستعمار نفسه نقيض للحرية، وفى النصف الثانى من القرن العشرين فإن المعسكر الغربى الليبرالى شجع وساند فى الغالب الأعم، أكثر الحكومات استبداداً وتنكراً للديموقراطية والحرية فى آسيا وأفريقيا والأمريكتين.

وهكذا فإن العلاقة بين الإعلام والسلطة بدأت تكتسب فى ظل تطور الاتصال الإلكترونى بعداً عالمياً، ومن الطبيعى أن يمتد أثر القانون الذى يحكم هذه العلاقة من الصعيد الوطنى إلى الصعيد القومى.

وإذا أخذنا بنظرية عالم الاتصال الكندى مارشال مكلوهن بأن العالم فى ظل تطور الاتصال الإلكترونى يتحول إلى قرية كونية واحدة[٣٢]، فإن الكثير من الشواهد تشير إلى أن إعلام السلطة، أى الإعلام كأداة للسلطة، سيكون هو النمط السائد فى العلاقة بين الإعلام والسلطة فى هذه القرية الكونية الواحدة، أما السلطة الحاكمة فى هذه القرية الكونية فلن يكون بالطبع سوى القطب الأوحد المهيمن على مقدرات النظام الدولى حالياً، أى الولايات المتحدة الأمريكية، أما بقية شعوب الأرض فعليها أن تلعب دور الرعية.

ومن المهم أن نعترف أن النظم السياسية والاجتماعية التى تحصر دور الإعلام فى مجرد كونه أداة للسلطة لم تعد تتمتع اليوم بأى قدر من الاحترام لدى شعوب العالم كافة، وهى تعتبر تهمة تحرص كل دولة على نفيها أو الهرب منها، ورغم ذلك فإننا نستطيع بسهولة أن نكتشف وجود الكثير من النظم السياسية ـ فى الوقت الحاضر ـ التى تتعامل مع الإعلام باعتباره أداة للسلطة.

أن الكثرة الغالية من دول العالم الثالث مازالت تنتمى إلى هذه النوعية من النظم، نجدها فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، بل أن عدداً من دول غرب أوربا كانت تعرف مثل هذه النظم إلى ما بعد النصف الثانى من القرن العشرين بسنوات، مثل أسبانيا (فرانكو) وبرتغال (سالازار).

وسبق أن قدمت لنا ألمانيا (النازية) وإيطاليا (الفاشية) نماذج صارخة لمثل هذه النظم السلطوية فى النصف الأول من القرن العشرين، كذلك فإن روسيا الاتحادية ودول شرق أوربا مازالت تنفض عن نفسها بقايا النظم السلطوية التى كانت تحكم أعلامها منذ ما لا يزيد عن عشر سنوات فقط!

ما نريد التأكيد عليه أن نمط الإعلام كأداة للسلطة مازال يشكل أحد الأنماط الرئيسية للعلاقة بين الإعلام والسلطة فى المجتمعات المعاصرة، بل لعله مازال أكثر الأنماط انتشاراً حتى الآن، ودليلنا على ذلك كثرة الدول التى تتبنى هذا النمط (رغم عدم اعترافها بذلك) وكثرة البشر الذين يخضعون له فى عالمنا المعاصر.

هوامش الفصل الثانى

1- Faster. Heil: Communication In History. P.P. 178-197.

2- Rimond. Aron: Mass Media. Apelican book. Second Edition. London. 2001. P.P. 112-117.

٣- ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثانى، المجلد الثالث، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ص٧١.

٤- على عبد الواحد وافى: الأدب اليونانى القديم، دار المعارف، القاهرة، ص٦٥-٧٢.

5- Macgregor. Mary: The Story of Roma. Apelican Book. 1996. P.P. 22-25.

٦- ف . بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، الطبعة الثانية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، القاهرة، ص٢٩-٣٠.

٧- محمد مفيد الشوباشى: القصة العربية القديمة، المؤسسة العامة للتأليف، القاهرة، ١٩٦٤، ص٢١-٢٢.

٨- هـ . فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، الطبعة الثانية، ترجمة مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى، دار المعارف، القاهرة، ص١٥، ٢٢، ٤٠.

٩- سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد أنيس: النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة، الطبعة الأولى، القاهرة، ص١٦، ١٧، ١٨.

١٠- عبد القادر حاتم: الرأى العام وتأثره بالإعلام والدعاية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣، ص١٦، ١٧، ١٨.

١١- عبد الحميد متولى: النظريات والأنظمة السياسية، ص٩٤.

12-Lindley . Frazer: Propaganda. The Free Press. London. 1996. P. 17.

١٣- أفلاطون: رجل الدولة، ترجمة أديب منصور، ص١٣٠.

١٤- عبد اللطيف حمزة: الإعلام فى صدر الإسلام، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٣، ص٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٨، ٣٩.

١٥- عصام سليمان الموسى: العرب وثورة الاتصال الأولى، مطبعة الروزتانا، أربد، الأردن، ١٩٩٩، ص٢٢-٣٤.

١٦- حمدى حسن: مقدمة فى دراسة وسائل الاتصال، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٨، ٢٠

١٧- حسنين عبد القادر: الرأى العام والدعاية، القاهرة، ١٩٥٧، ص٨٧.

١٨- عبد القادر حاتم: الرأى العام وتأثره بالإعلام والدعاية، ص١٦-١٨.

١٩- حسنين عبد القادر: الصحافة كمصدر للتاريخ، ص١٦-١٨.

20- Laski . Harold: The Rise of European Liberalism. Unwin Books. London. 1962. P.P. 11-17.

21- Sabine . George: A History of Political Theory. 3rd Edition. Holt. Rinehart and Winstern. New York. 1961. P.P. 662-668.

٢٢- عبد القادر حاتم: الرأى العام وتأثره بالإعلام والدعاية، ص٢٧. وفى كتاب الخطط للمقريزى، وصبح الأعش للقلقشندى معلومات تفصيلية عما بلغه الفاطميون من مهارة فى مجال الإعلام.

٢٣- عصام سليمان الموسى: العرب وثورة الاتصال الأولى، ص١٥-١٨.

٢٤- فاروق أبو زيد: علم الصحافة، عالم الكتب، القاهرة ٢٠٠٦، ص٢٢-٢٦.

25- Steinberg . H: Five Hundred Years of Printing. A Pelican Bood. 3rd Edition. 2003. P.P. 22-24.

26- Mott . Frank: The News In America. Harvard University Press. U.S.A. 3rd Edicіotn. 1998. P.P. 72-76.

27- Reymond . Aroin: An Essay on Freedom. Apelican Book. 3rd Edition. London. 2001. P.P. 112-116.

٢٨- لينين: حول الصحافة، الجزء الأول، منشورات الطريق الجديد، بغداد، ١٩٧٧، ص١٤٧-١٧٦ز

29- Dimitrov . Georgi: The Press is a Great Force. International Organization of Journalists. Pragne. 1973. P.P. 35-39.

٣٠- فرانز فابر: الصحافة الاشتراكية، ترجمة نوال حنبلى وآخرون، مطبوعات معهد الإعداد الإعلامى، دمشق ١٩٧١، ص١١٢-١١٨.

٣١- شون ماكبرايد: أصوات متعددة وعالم واحد، ص٦٣-٦٤.

٣٢- مارشال ماكلوهن: كيف نفهم وسائل الاتصال، ترجمة خليل صايات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٢، ١٣.